٢ - الأمثال العامية العربية والفلسفة الشعبية

بقية ما نشر فى العدد الماضى

وفى الأمثال العامية منطق سليم ، نجد فيه الاستدلال ولكن بصورة غير التى عهدناها ، والقضايا وأحكامها فى ثوب غير الذى تعودناه ، والتعريف والتقسيم والتصنيف والقياس والتركيب والتحليل والاستقراء ولكن فى قالب غير الذى ألفناه واعتدنا النظر فيه .

وفيها الحكمة التى إذا قيلت أوجزت ودلت ، وإذا ألقيت كفت وأدلت ، وفيها الحكمة التى تمنطق الموقف وتفحم المستمع ، فلا يعتم أن يطأطىء رأسه حياء من دلالتها وإعجاباً بقدرتها ، وتقديراً لكمالها ، وخشوعاً لهيبتها ، وخضوعاً لحكمها . وهكذا الحكمة فى كل زمن ، وفى كل بيئة ، وفى كل ظرف ، وفى كل موقف ؛ سواء إذا جاءت فى مثل عامى ، أو مثل فصيح ، أو فى كلام مرسل ، أو كلام منظوم .

وفيها فلسفة الوجود ، وفلسفة الحياة ، وفلسفة الآمال والأطماع ، وفلسفة المثل العليا فى الخلق ، وفلسفة المثل العليا فى الأعمال الاجتماعية ، وفيها الفلسفة الصامتة فى الردود على السفهاء ورد الشدة بمثلها ، أو ردها بإغضاء وإعراض وعفو كريم . وفيها فلسفة الحقيقة الواقعة ، وترديد الواقع المخجل فى صورة تدعو لتذكره بعد إغضاء أو إهمال ، وفيها فلسفة السعادة واللذة ، وفلسفة الصفات والفضائل والرذائل ، وفيها فلسفة الروية والإمعان ، وفلسفه الطبيعة والخيال ، وفيها وفيها مما لا يحصره عد ، ولا يفى به ذكر ، ولا يوفيه تذكير ولا يؤديه كلام أو أداء .

وهنالك عهد ازدهار وانتشار لبعض الأمثال العامية العربية ، كأن هنالك عهد خمول لبعضها ، وذلك يرجع إلى أحداث الأيام والسنين ، ومايجد فيها وماتستلزمه هذه الجدة من أمثال تطابقها وهذا كشأن بعض الكلمات التى تتداول بكثرة فى ظروف معينة ، أوفى بيئة معينة ، وغيرها كلمات تتهمل ويبور (موديلها) فى سوق اللسان ، ففى أيام الحرب مثلا تتزعم فى التداول الكلامى كلمات مناسبة ، كـكلمات : النار والدم والقنابل والخندق وصفارة الإنذار والغارة وماشابه ذلك وفى أيام شهر العسل يتذكر العروسان كلمة (العسل) ويتذكرانها كثيراً ، أو أنها تكون معروفة ، ومهمة كل الأهمية فى هذا الشهر ولو لم ينطق بها ، والناس فى المسجد يذكرون (الله) كثيراً ، والفصل الدراسى فى مدرسة من المدارس فى درس الجغرافية تتردد فى أرجائه كثير من الكلمات الخاصة : كالتضاريس والمناخ والرياح العكسية والأعاصير والجنادل ، وفى درس الكيمياء تتردد ألفاظ كالسحاحة والمخبار والأنبوبة ؛ وهكذا فى كل درس خاص ، وكلمة (المسمار) حية بالنسبة للنجار وخاملة بالنسبة لأستاذ الأدب أو لبائع اللبن ، وعلى هذا فكل صنف من الأمثال يتداول بكثرة فى بيئة خاصة ، أو فى زمن معين ، أو لظروف معينة .

ولكن الذى لاحظته أن كثيراً من الأمثال العامية تتداول فى كثير من البلاد العربية ، فالمثل العامى الذى يستعمل فى مصر قد يستعمله الكويتيون ، والمثل الذى يستعمله الكويتيون قد تستعمله البحرين ، والذى تتداوله البحرين قد يكون سارياً فى العراق وهكذا ، وإن لم يستعمل فى هذه البلاد بنفس النص ، فإنه يستعمل بنفس المعنى ونفس الأداء .

ومن هذا نستطيع أن ندرك أن هنالك وحدة فى الفلسفه والحكمة والشعبية بين البلاد العربية ، ووحدة

فى مشارب التفكير ، ومن هذا جاء القول بأن الشرق شرق ، والغرب غرب ، وباختلاف الشرق عن الغرب والغرب عن الشرق .

والشعب إذا سرت الثقافة بين أوساطه استطاع أن يحول أمثالة العامية إلى أسلوب جديد يحمل المعنى أو الفهم إن رأى أن يدع نفس اللفظ ، وليس من عيب أن يستعمل الرجل المثقف المثل العامى بنصه وأسلوبه ، ولكن الذى أريده أن يأخذ المثقف هذا المثل ويهذب لفظه ، أو يعدل نطقه ويصحح التلفظ به فقط ، فإن من الأمثال العامية ما عبارته صحيحة فى اللغة ، ولكنها خاطئة فى النطق بها بسبب اللهجة ، وعلى هذا فمن السهل على المتعلم أن يتخذ هذه الخطوة البارعة فى استغلال تلك الأمثال العامية الهامة ثم إن المثقف يستطيع أن يستعمل الأمثال العربية الفصحى فى كلامه ، بل ويستطيع أن يستشهد بالشعر العربى أو يذكر فحواه بأسلوبه الشعبى إن كان يكلم العامة ، وبأسلوبه الفصيح إن كان يتكلم مع الخاصة .

وقد أخطأ الحكام الذين أرادوا حكم بلاد لم يدرسوها ولم يطلعوا على تقاليدها ومعتقداتها ولم ينغمروا ويعرفوا الكثير عن فلسفتها ، فالذى يريد أن يحكم الشعب أو يوجه الشعب أو يصادق الشعب ، فأول ما يجب عليه أن يدرس فلسفة الشعب ، وتستلزم منه هذه الدراسة أن يدرس الأمثال العامية أولا لأنها مصدر أول لتلك الفلسفة وأن ينغمر فى الوسط الشعبى ليلم بكل تافه وكل عظيم وكل دقيق وكل كبير .

فإن لم يقم بذلك وإن جهل أن الأمثال العامية والفلسفة الشعبية هى مفتاح الشعب ، فلن يستطيع الحكم ولا التوجيه ولا المصادقة ولا الفخار ولا الاختلاط ولا النجاح . . ؟

أحمد طه السنوسى

إن من البيان لسحرا

(بقية المنشور على صفحة ١٧)

إنها داعية لم يحن وقتها إلا الآن ، فتبسم القاضى وقال : عفا الله عنك يا أبا السائب ! لقد أتعبك هذا الصوت ، كما أتعبنى من قبلك صوت أبى سعيد .

لقد طفت سبعاً قلت لما قضيتها
ألا ليت هذا لاعلىّ ولا ليا

قال الراوى : فسألت القاضى عن ذلك ، فقال : كان أبو سعيد مولى قائد مولى عمرو بن عثمان بن عفان رضى الله عنه ، قدجمع إلى روعة الشعرحسن الصوت ، وتقوى الله ، فأصبح مقبول الشهادة ، معدّلا ، تقدم إلى مجلسى يوما للشهادة . فقلت له : أنت القائل يا أبا سعيد :

لقد طفت سبعاً قلت لما قضيتها
ألا ليت هذا لاعلىّ ولا ليا

فقال . أى لعمر أبيك ، وإنى لأدمجه إدماجاً من لؤلؤ فرددت شهادته فى ذلك المجلس ، فقام مغضباً وحلف أن لا يشهد عندى أبدا ، وقد شق ذلك على أهل المدينة ، وأنكروا علىّ هذا ، وقالوا : عرضت حقوقنا للهلاك ، وأموالنا للتلف ، لعلمنا بتعديل أبى سعيد وتقديمه عندك ، وعند من سبقك من قضاة ، فندمت بعدذلك على رد شهادته ووجهت إليه من يسأله الحضور والشهادة ، فامتنع لليمين التى لزمته ، فصرت أسير إليه ، إن ادعى أحد شهادته ، وأنا رجل ثقال يشتد علىّ المشى ، فكنت أقول لخلصائى : لقد أتعبنى هذا الصوت كثيرا .

قال الراوى وكنا نسير سيراً ، لا يشق على القاضى ولما أشرفنا على البلد اتخذ القاضى طريقاً ، واتخذت سبيلا وهو يقول : عفا الله عنك ياأبا السائب ، لقد أتعبك هذاالصوت ، كما أتعبنى من قبلك ذلك الصوت .

(الكويت) عبد اللطيف الصالح
المدرسة المباركية